

التأويل النحوي وأثره في ضبط اللغة

مرّ التأويل عند العرب بأدوار مميزة تركت وراءها أفاعيل بعيدة في التأثير على الذهنية العربية والاسلامية، وأرقاما كبيرة أسهمت في إثراء الثقافة الاسلامية، وفي تلوين مفاهيمها ومعطياتها. وإلى التأويل يرجع الكثير من الخلافات والاختلافات في مسائل الفكر وقضايا العقيدة، ومنه ما نقرؤه في مدونات تفسير القرآن الكريم، وكتب شروح الحديث الشريف، ومن أهم أسباب هذا هو اختلافهم في معنى التأويل كظاهرة ثقافية وكمصطلح علمي. وقدما كان معنى التأويل يرد بعبارات مختلفة منها : (وأن العرب تريد كذا أو تعني كذا) وغالبا ما يتكون ذلك للسامع فلا يستعملون أي تعبير دال على التأويل. ويرى الدكتور محمد عبد الفتاح الخطيب أننا لانكاد نجد تعريفا دقيقا لمفهوم التأويل - عندهم - وإن كان المتأمل في الدرس النحوي يجد استعماله قد امتد امتدادا مباشرا عن مدلوله اللغوي فهم يلجؤون إليه عند مخالفة اللفظ أو التركيب الظاهر المعنى أو الأصل النحوي، فيحمل على خلاف الظاهر لدليل، فهم يستعملونه اذا عدل بالشيء عن الموضع الذي يستحقه، فاما اذا وقع في الموضع الذي يستحقه فمحال أن يقال إن النية غير ذلك.

التأويل لغة:

التأويل: مصدر الفعل اَوَّل ، يُووِّل ، تاويلاً وذلك بتعدية آل يؤوِّل أولاً وإيلاً، ومعنى (آل) رجع وصار، جاء في لسان العرب : ((الأول : الرجوع . آل الشيء يؤوِّل أولاً ومألاً: رجع، وأوَّل إليه الشيء: رجعه ... وألَّتْ عن الشيء: ارتدَّتْ ... التهذيب: وأما التأويل فهو تفعيل من أوَّل يؤوِّل تاويلاً وثلاثية آل يؤوِّل أي رجع وعاد.)) .

التأويل اصطلاحاً:

التأويل بوجه عام هو صرف الظواهر اللغوية إلى غير الظاهر للتوفيق بين أساليب اللغة وقواعد النحو، ومبعث ذلك كما يتضح من التعريف هو التعارض بين الأسلوب اللغوي وعلم النحو فهو أشبه بتأويل المشكل عند المحدثين.

ومن أجل الوصول للتأويل الصحيح ظهر مفهوم (التقدير) الذي يمهد السبيل للحالة التوفيقية بين التعارض اللغوي والنحوي. وذلك بافتراض محذوف هو العامل أو المعمول أو غير ذلك. وقد عرفه الدكتور محمد عيد بقوله : ((هو صرف الكلام عن ظاهره إلى وجوه خفية لتقدير وتدبر وأن النحاة قد أولوا الكلام وصرفوه عن ظاهره لكي يوافق قوانين النحو وأحكامه)) .

وتعريفه هذا يقترب من كلام الجرجاني في التعريفات عندما تحدث عن التأويل فقال : ((التأويل في الأصل الترجيح، وفي الشرع صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتملُه)).

وثمة تعريف آخر للدكتور علي أبو المكارم أراه أكثر دقة من سابقه يقول فيه، التأويل: ((هو محاولة إرجاع النصوص التي لم تتوفر فيها شروط الصحة نحويا إلى مواقف تتسم بالسلامة النحوية أو بتعبير آخر هو صب ظواهر اللغة المنافية للقواعد في قوالب هذه القاعدة)). ويرى الدكتور أبو المكارم أنه عند التحري لاستعمال العرب لمصطلح التأويل يتبين أنهم يطلقون التأويل على أساليب مختلفة ترمي إلى إضفاء صفة اتساق على العلاقة بين النص والقاعدة ، أي عند صرف الظاهرة اللغوية إلى وجه خفيّ يحتاج إلى تقدير وتدبر، فهذا نوع توفيقى لأسلوب اللغة والقاعدة النحوية.